بلاغة أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم ، "سورة آل عمران أنموذجا"

فوزية محمد صقر

قسم اللغة العربية -كلية التربية -جامعة لزيتونة

تاريخ الاستلام 2024/09/05 dannanoor77@gmail.com

الملخص :

تتناول هذه الدراسة جانبا مهما من جوانب الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، فهي تكشف عن فن الاحتباك في سورة آل عمران ، حيث حفلت هذه السورة بالكثير من نماذج هذا الفن . وقد ابتدأت الدراسة بتعريف فن الاحتباك ، وبيان شروطه وقيمته البلاغية ، وذِكْر أنواعه في القرآن الكريم ، ثم وقفت الدراسة بالتحليل لمواطن الاحتباك في سورة آل عمران ؛ لبيان النكتة البلاغية التي أُسْتُهدفت بالاحتباك وهو لبّ الدراسة و هدفها الأول .

الكلمات المفتاحية : سورة آل عمران ، الاحتباك ، الاحتباك الضدي ، المحذوف ، التقدير .

المقدمة :

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم و آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلغة العرب ، وللعرب مسالك في كلامها ، ومن تلك المسالك أنها قد تحذف بعض الكلمات في أثناء كلامها لتحقيق أغراض بلاغية معينة ، تفيد في تقوية الكلام وجعله أوقع أثرا و أبلغ تأثيرا . ولم يخرج القرآن الكريم عن معهود العرب في لغتهم ، بل جاء على وفق ما ألِفَتْه العرب في كلامها ، فاعتمد الحذف أسلوبا من جملة أساليبه البلاغية .

وقد ورد الحذف في القرآن الكريم على أقسام متعددة ، هي : حذف الاقتطاع ، وحذف الاكتفاء ، و حذف الاختزال ، وحذف الاحتباك ، وهذا البحث : (بلاغة أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم ، سورة آل عمران أنموذجا) يتناول أحد تلك الأقسام وهو الحذف على سبيل الاحتباك ، وذلك من خلال إحدى سور القرآن ، وهي سورة آل عمران .

ومن دوافع الدراسة ، أذكر :

1- لم يلق أسلوب الاحتباك العناية الكافية من الدراسة والتحليل من قبل العلماء و الباحثين .

2- شيوع أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم .

3- تميزت سورة آل عمران بكثرة النماذج الواردة على أسلوب الاحتباك .

وترجع أهمية البحث لكونه يأتي في نطاق خدمة القرآن الكريم ، بالبحث في قضايا بلاغته المعجزة .

أما الهدف الرئيس للبحث فهو الوقوف على مواطن الاحتباك في سورة آل عمران ، وتحليلها ؛ لبيان المغزى البلاغي الذي حققه الاحتباك .

واعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي ؛ لملائمة طبيعة الدراسة .

وقد انطلق البحث من التساؤلات الآتية :

ما مفهوم الاحتباك ؟ وما الشروط الواجب توافرها فيه ؟ وما الفائدة البلاغية للاحتباك؟ وما الأنواع التي يأتي عليها الاحتباك في القرآن الكريم ؟ و أين تكمن مواطن الاحتباك في سورة آل عمران ؟ وما المغزى البلاغي الذي تحقق بالاحتباك ؟

فكانت الإجابة عن هذه التساؤلات وفق الخطة التالية : مقدمة ، ومبحثان ، وخاتمة .

المقدمة ، وفيها : دوافع اختيار الموضوع ، و أهميته ، والهدف منه ، وكذلك تساؤلات البحث ، وخطته ، والمنهج الذي سار عليه .

أما المبحث الأول :(ويمثل الجانب النظري للدراسة)، فيتناول تعريف فن الاحتباك ، وشروطه ، وبلاغة الاحتباك ، و أنواعه في القرآن الكريم .

أما المبحث الثاني :(ويمثل الجانب التطبيقي للدراسة)، فيتناول التحليل البلاغي لمواطن الاحتباك في سورة آل عمران ، استخراجا ، ثم شرحا وتحليلا ؛ لبيان النكتة البلاغية التي أُسْتُهدفت بالاحتباك

خاتمة : وفيها أبرز النتائج .

وقد أفدت في هذا البحث من كتب التفسير والبلاغة وعلوم القرآن ، وغيرها ، إضافة إلى دراستين كتبتا في الاحتباك . الأولى بعنوان : الاحتباك في القرآن الكريم " دراسة بلاغية "، للباحث : عدنان عبد السلام الأسعد ، جامعة الموصل ، سنة 2005 . والثانية بعنوان : أسلوب الاحتباك في آثار أهل العلم و مواقعه في القرآن الكريم ، للباحثة : أمينة بنت سعيد بن خيشان ، جامعة أم القرى ، سنة 2009م .

المبحث الأول : أسلوب الاحتباك

المطلوب الأول : مفهوم الاحتباك بين اللغة والاصطلاح

أولا : مفهوم الاحتباك في اللغة

يقول الجوهري : " الحِبَاك والحَبِيْكَة : الطريق في الرمل ونحوه ، وجمع الحِبَاك حُبُك ، وجمع الحبيكة حبائك .... وحَبِكَ الثوب يحبكه بالكسر حبْكا ، أي : أجاد نسجه . قال ابن الأعرابي : كل شيء أحكمته و أحسنت عمله فقد احتبكْتُه " . (الجوهري ، 2009 ، ص 220-221)

وقال ابن فارس : " حبك : الحاء والباء والكاف أصل منقاس مطرد ، وهو إحكام الشيء في امتداد و إطّراد ....ومن الاحتباك الاحتباء وهو شدّ الإزار ، و حُبُك السماء في قوله تعالى : **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ }** (سورة الذاريات ، الآية : 7) فقال قوم : ذات الخَلْق الحسن المحكم " . (ابن فارس ، ب. ت ، ص 2 / 130)

وفي لسان العرب يقول ابن منظور : " الحبك الشدّ ، و احتبك بإزاره : احتبى به وشدّه إلى يديه ، والحُبْكة أن تُرخي من أثناء حُجْزتك من بين يدبك لتحمل فيه الشيء ما كان ، وقيل : الحُبكة : الحُجْز بعينها ومنها أخذ الاحتباك بالباء وهو شدّ الإزار " (ابن منظور ،ب. ت ، ص 10 / 407)

وجاء في القاموس المحيط : " الحَبْك : الشدّ و الإحكام ، وتحسين أثر الصنعة في الثوب حُبُكُهُ و يَحْبكُهُ ، كاحْتَبَكَهُ ، فهو حبيكٌ ومحبوك ....واحتبك بإزاره : احتبى . والحُبكه ،بالضم : الحُجْزَة . وتحبّك : شدّها أو تلبّب بثيابه ، والمرأة بنطاقها : تنطّقت " . (الفيروز آبادي ، 2005 ، ص 935)

مما تقدم ومن خلال تتبع معنى كلمة احتباك في المعاجم اللغوية السابقة يتبين أن معنى الاحتباك لا يخرج عن ثلاثة معانٍ هي :

1- شدّ الإزار

2- إحكام الشيء

3- و حسن صنعه .

ثانيا : مفهوم الاحتباك اصطلاحًا

عرّفه الشريف الجرجاني بقوله : " هو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، و يُحذف من كل واحد منهما مقابله ، لدلالة الآخر عليه " . (الجرجاني ، 1983 ، ص 13)

وسمّاه السجلماسي الحذف المقابلي ، أو الاكتفاء بالمقابل ، وعرّفه بقوله : " هو القول المركب من أجزاء فيه متناسبة نسبة الأول منها إلى الثالثة كنسبة الثاني إلى الرابع أو ما كانت النسبة فيه كنحو ذلك ، فاجتزيء من كل متناسبين بأحدهما لقطع الدلالة مما ذكر على ما ترك " . (السجلماسي ، 1980 ، ص 195)

ومثله الزركشي سمّاه بالحذف المقابلي ، وعرّفه بقوله : " هو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، فيُحذف من واحد منهما مقابله ، لدلالة الآخر عليه " . (الزركشي ، 2006 ،ص 702)

ونجد برهان الدين البقاعي يعرفه بقوله : " هو أن يُؤتى بكلامين يحذف من كل منهما شيء إيجازا ، يدل ما ذُكر من كل على ما حُذف من الآخر ، وبعبارة أخرى هو أن يُحذف من كل جملة شيء إيجازًا ، ويُذكر في الجملة الأخرى ما يدل عليه " . (البقاعي ، 1971، ص 4/ 263)

ونقل السيوطي قول الأندلسي في شرح البديعية قائلا : " قال الأندلسي في شرح البديعية: من أنواع البديع الاحتباك ، وهو نوع عزيز ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول " . (السيوطي ، 2008 ، ص542)

أما من المحدثين فنذكر الشيخ الشعراوي الذي عرّف الاحتباك بقوله : " الاحتباك : هو أن تحذف من الأول نظير ما أثبت في الثاني ، وتحذف من الثاني نظير ما أثبت في الأول ، وذلك حتى لا تكرر القول " . (الشعراوي ، ب ت ، ص 3/ 1303) . وفي موضع آخر يقول : " هو أن تجعل الكلام شطرين و تحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر قصد الاختصار " . (نفسه ، ص4098/7)

وقال عنه عبد الرحمن حبنكة : " أن يحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر ، ويحذف من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل " . (حبنكة ، 1996 ، ص 2/ 54)

والمتّضح ، أن التعريفات السابقة تنظر إلى الاحتباك على أنه حذف بين كلامين فيهما متقابلان أو متناظران بدليل . فالمحذوف من الأول يدل عليه مقابله أو مناظره في الثاني ، والمحذوف من الثاني يدل عليه مقابله أو مناظره في الأول .

ويرى باحث معاصر أن تلك التعريفات غير شاملة ، لأن بعضها قيد الاحتباك بين الجمل المتقابلة ، وبعضها قيدها بالتناظر . والاحتباك في رأيه يقع بين الألفاظ الضدية ، وبين الألفاظ المتشابهة ، أو المتناظرة ، أوبين المنفية والمثبتة ، وقد يشترك نوعان منها في نص واحد . لذلك قام هذا الباحث بوضع تعريف يراه شاملا وموضحا للاحتباك إلى حدّ كبير، وبحسب تعريفه فإن الاحتباك " أن يُؤتى بكلامين في

النص في كل منهما متضادان أو متشابهان ، أو متناظران ، أو منفيان ، أويشترك نوعان منها في نص واحد ، فيُحذف من أحد الكلامين كلمة ، أو جملة إيجازًا يأتي ما يدل على المحذوف في الثاني ، ويُحذف من الثاني كلمة أو جملة أيضا قد أتى ما يدل عليها في الأول ، فيكون باقي كل منهما دليلًا على ما حُذف في الآخر ، ويكمّل كل جزء الجزء الآخر ويتممه ويفيده من غير إخلال في النظم ولا تكلف " . (الأسعد ، 2013 ، ص18)

وتأسيسا على ما سبق ، تعرف الباحثة الاحتباك إجرائيا بأنه : حذف بين كلامين فيهما متضادان، أو متشابهان ، أو متناظران ، أو متقابلان بالنفي و الإثبات ، أو يجتمع نوعان مما سبق في نص واحد ، لغرض بلاغي ، وبدلالة المذكور على المحذوف .

وبيّن السيوطي العلاقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي فقال : " مأخذ هذه التسمية من الحبك الذي معناه الشدّ والإحكام وتحسين أ ثر الصنعة في الثوب فحبك الثوب سدُّ ما بين خيوطه من الفُرَج وشدّه وإحكامه بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسنً والرونق . وبيان أخذه منه : من أن مواضع الحذف من الكلام شُبهت بالفرج بين الخيوط ، فلما أدركها الناقد البصير بصَوْغه الماهر في نظمه وحوكه ، فوضع المحذوف مواضعه . كان حابكًا له مانعًا من خلل يطرقه ، فسدّ بتقديره ما يحصل به الخلل ، مع ما أكسبه من الحسن والرونق " . (السيوطي ، 2008 ، ص 543)

فالسيوطي بيّن انتقال المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي من خلال تشبيه مواضع الحذف في الكلام بالفُرَج التي بين خيوط الثوب ، فتحسين الصنعة في الثوب من خلال سدّ الفُرج التي بين خيوطه ، وكذا مواضع الحذف ، فوضع المحذوف في موضعه المناسب يحبك الكلام ويمنعه من الخلل ويكسبه حسنا و رونقا . إذن : فقد أفاد المعنى الاصطلاحي من المعنى اللغوي ، وجرى في مجراه .

المطلب الثاني : شروط الاحتباك

الاحتباك ضرب من ضروب إيجاز الحذف ، ولا بدّ له من شروط و ضوابط تسوغه وتميزه عن غيره من أنواع الحذف الأخرى ، ومن هذه الشروط ما يأتي :

1- تحقق شرط وجود الدليل ، " فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب " . (ابن الأثير ، 1939 , ص 2/ 81)

2- وجود علاقة بين المذكور والمحذوف .

3- أن يكون الحذف في جملتين .

4- تحقق شرط التقابل أو التناظر بين المحذوفين والمذكورين .

5- أن يفضي الحذف إلى غرض بلاغي يجعل الحذف أبلغ من الذكر . (يُنظر : القرشي، 2009 ، ص 23 ، الأسعد ، 2013 ، ص 31)

المطلب الثالث : بلاغة فن الاحتباك

يحقق الاحتباك فوائد بلاغية في الكلام، نذكر منها :

1- تهذيب العبارة ، لأن المعنى الذي يدركه الفهم إدراكًا قويًا مع حذف الألفاظ الدالة عليه يكون في ذكرها فضول تتنزه عنه البلاغة العالية . (الأسعد ، 2013 ، ص 32)

2- تحقيق فضيلة الإيجاز ، يقول الشيخ الشعراوي : " وهذا هو الأسلوب الذي يؤذي المعنى بمنتهى الإيجاز ، لينبّه ذهن السامع لكلام الله " . (الشعراوي ، د . ت ، ص 17 / 4098)

3- وذكر البقاعي من تلك الفوائد تمام العنى ، وقال في ذلك : " ولم أجعل الآية من الاحتباك لنقص المعنى " . (البقاعي ، 1971 ، ص 4/ 179)

4- صيانة الكلام من الثقل والترهل اللذين يحدثان من ذكر ما تدل عليه القرينة . (أبو موسى ، 1980، ص 117)

5- إثارة الفكر والحسّ بالتعويل على النفس في إدراك المعنى . (نفسه ، ص 117)

6- زيادة اللذة باستنباط الذهن للمعنى المحذوف ، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشد، و أكثر ، وكان ذلك أحسن . (ابن القيم ، د ت ، ص 71)

7- إحداث الصدمة ، أو الإثارة ، أو العصف الذهني لدى القارئ ، بالخروج عن المألوف مما يستنفر القوى الذهنية للقارئ للوصول إلى فهم المراد ، ومن ثم الشعور باللذة عند اكتشاف القرائن الدالة ، وهذا يترافق مع قوة التأمل والفهم ، وهذا ما يجنب القاريء الرتابة التي تؤدي إلى السطحية والغفلة والملل . (حماش ، 2022 ، ص 2451)

8- ومن فوائد الاحتباك القدرة على الربط والسبك ، وقد تنبّه إلى ذلك الزركشي فذكره تلميحًا لا تصريحًا حين فسّر قوله تعالى : {**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ**}(سورة البقرة ، من الآية: 22) . (الثوابية ، 2014 ، ص 244) ، يقول الزركشي : " فتقديره : لا تقربوهن حتى يَطْهُرن و يَطّهرن ، فإذا طَهُرن و تَطَهّرن فأتوهن ، وهو قول مركب من

أربعة أجزاء : نسبة الأول إلى الثالث ، كنسبة الثاني إلى الرابع و يُحذف من أحدهما لدلالة الآخر عليه " . (الزركشي ، 2006 ، ص703)

المطلب الرابع : الاحتباك وصلته بالقرآن الكريم

وهنا نذكر أنواع الاحتباك في القرآن الكريم مشفوعة بأمثلة مختصرة موضحة لكل نوع، وهي كالتالي :

1- احتباك ضدّي ، وهو أن يُحذف من الأول ما أُثبت ضدّه في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت ضدّه في الأول . (الأسعد ، 2013 ، 34) . ومن أمثلته قوله تعالى : **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}**(سورة يونس ، الآية : 67) . قال البقاعي مبيّنا وجه الاحتباك في الآية : " حُذف وصف الليل وذُكرت علّته عكس ما فعل بالنهار ليدل ما ثبت على على ما حذف " . (البقاعي ، 1971 ، ص9/ 158) .فالمحذوف من الطرف الأول (مظلما)، لدلالة ذكر ضده في الثاني وهو(مبصرا)، والمحذوف من الطرف الثاني(لتتحركوا فيه)، لدلالة ذكر(تسكنوا فيه)في الطرف الأول ، وعلى هذا يكون التقدير " هو الذي جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه ، والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم ، فحُذف من كل ما ذكر في الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك " . (ابن عاشور ، 1984 ، ص11/ 227)

2- احتباك متشابه ، وهو أن يُحذف من الأول ما أثبت مثله في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت مثله في الأول . (الأسعد ، 2013 ، 83) ومن أمثلته قوله تعالى :{ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** } (سورة الأنفال ، الآية : 65) . قال أبو حيان الأندلسي في بيان هذا الاحتباك : " والتقييد بالصبر في أول كل شرط لفظا هو محذوف من الثانية . لدلالة ذكره في الأولى ، وتقييد الشرط الثاني بقوله (من الذين كفروا) لفظا هو محذوف من الشرط الأول في قوله :(يغلبوا مائتين) ، فانظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت قيد في الجملة الأولى و حذف نظيره من الثانية ، وأثبت قيد في الثانية و حذف من الأول " (الأندلسي، 1993 ، ص 4/ 511) ، فالمحذوف من الطرف الأول (الذين كفروا) بدليل ذكر مثله في الطرف الثاني ، والمحذوف من الطرف الثاني (صابرون) بدليل ذكر مثله في الطرف الأول ، وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة :" وإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين من الذين كفروا وإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفا من الذين كفروا " (الأسعد ، 2013 ، ص 90)

3- احتباك متناظر ، وهو أن يُحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول . (الأسعد ، 2013 ، ص 120) ومن أمثلته قوله تعالى : { **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** }(سورة البقرة ، من الآية : 228) قال الألوسي : " فيه صنعة الاحتباك ، ولا يخفى لطفه فيما بين الزوج والزوجة حيث حذف في الأول بقرينة الثاني ، وفي الثاني بقرينة الأول ، وكأنه قيل : ولهن عليهم مثل الذي لهم عليهن ، والمراد بالمماثلة – المماثلة في الوجوب – لا في جنس العمل " (الألوسي ، ب ت ، ص2/ 134) ، فالمحذوف من الطرف الأول (عليهم) لدلالة نظيره عليه في الثاني وهو (عليهن) ، والمحذوف من الطرف الثاني (لهم) لدلالة نظيره عليه في الأول وهو (لهن) ، والتقدير : " ولهن على الرجال مثل الذي للرجال عليهن ، فحذف من الأول لدلالة الآخر عليه وبالعكس " (ابن عاشور ، 1984 ، ص2/ 396)

4- احتباك منفي مثبت ، وهو أن يُحذف من الأول ما أثبت منفيه في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت منفيه في الأول . (الأسعد ، 2013 ، ص 139) ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى : {**فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلاَّ إِبْلِيسَ استكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين** } (سورة ص ، الآيتان : 73-74) قال البقاعي : " ذكر السجود أولا يدل على نفيه ثانيا . والاستكبار ثانيا يدل على نفيه أولا " (البقاعي ، 1971 ، ص 16/ 421) فالمحذوف من الطرف الأول (من غير استكبار) وهو منفي ، لدلالة ذكر (من استكبر) في الطرف الثاني وهو مثبت ، والمحذوف من الطرف الثاني (لم يكن من الساجدين) وهو منفي ، لدلالة ذكر (سجد) في الطرف الأول وهو مثبت ، وعلى هذا يكون تقدير الآية : " فسجد الملائكة كلهم أجمعون من غير استكبار إلا إبليس استكبر ولم يكن من الساجدين " (الأسعد ، 2013 ، ص 147)

5- احتباك مشترك ، وهو ما كان تقابل الألفاظ فيه مختلفا ومتنوعا ، فيُحذف من الأول ما يدل عليه نفيه في الثاني ، ومن الثاني ما يدل عليه ضدّه في الأول ، أوبين المتشابه والمتناظر ... ألخ ، أو بالعكس . فهذا النوع يكاد يجمع الأنواع السابق ذكرها . (الأسعد ، 2013 ، ص 155) ومن شواهده قوله تعالى : { **لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**} (الأعراف ، الآية : 41) " فذكر جهنم أولا دليلا على إرادتها ثانيا ، وذكر الفوق ثانيا دليلا على إرادة التحت أولا " (البقاعي ، 1971 ، ص 7 / 400) ، وعلى هذا يكون تقدير الآية : " لهم من جهنم مهاد من تحتهم ومن فوقهم غواش تغطيهم من جهنم " (الأسعد ، 2013 ، 178) فالمحذوف من الطرف الأول (من تحتهم) لدلالة ذكر ضدّه عليه في الطرف الثاني وهو (من فوقهم

) ، والمحذوف من الطرف الثاني (جهنم) لدلالة ذكر مثله عليه في الطرف الثاني ، وبهذا جمعت الآية بين نوعين من الاحتباك : الضدّي والمتشابه .

ومن الجدير بالإشارة إليه أن الاحتباك الضدي من أكثر أنواع الاحتباك ورودا في القرآن الكريم مقارنة بالأنواع الأخرى ، وذلك لأنه من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في التمييز بين ضدين ونقيضين ، فقد ورد سبعا وستين مرّة ، ويأتي الاحتباك المتشابه بعد الاحتباك الضدي من حيث النسبة التي ورد فيها في القرآن الكريم ، فقد ورد ثماني و أربعين مرة ، وأما الاحتباك المتناظر والاحتباك المنفي المثبت فهما الأقل ورودا في الكتاب العزيز ، فقد ورد الأول في عشرة مواضع ، والثاني في أحد عشر موضعا ، ويأتي الاحتباك المشترك بعد الاحتباكين الضدي والمتشابه ، فقد ورد في اثنين وثلاثين موضعا في القرآن الكريم . (الأسعد ، 2013 ، ص 26- 31)

المبحث الثاني : مواضع الاحتباك في سورة آل عمران

تحتوي سورة آل عمران على مجموعة متنوعة من الاحتباك وهي على النحو الآتي :

1-في قوله تعالى : { **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ** }(سورة آل عمران ، من الآية : 13) . " إحدى الفئتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كان معه ممن شهد وقعة بدر ، والأخرى مشركو قريش "(الطبري ، 1994 ، ص2/ 225) ، وقد ذكر تعالى في بيان الفئتين : " فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة " أي : فئة منهما مؤمنة ، لما يرشد إليه قوله : " تقاتل في سبيل الله " لتكون كلمة الله هي العليا ، ومن كان كذلك لم يكن قطعا إلا مؤمنا ، و أخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان . (البقاعي ، 1971 ، ص4/ 262-263) فوقع بهذا حذف من الطرفين على سبيل الاحتباك الضدي . فالمحذوف من الطرف الأول كلمة (مؤمنة) ، بدلالة ذكر كلمة (كافرة) في الطرف الثاني ، والمحذوف من الطرف الثاني جملة (يقاتلون في سبيل الشيطان) بدلالة ذكر جملة (تقاتل في سبيل الله) ، وعلى هذا يكون التقدير : فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان . يقول أبو حيان في بيان هذا الاحتباك : " أي فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، فحذف من الأولى ما أثبت مقابله في الثانية ، ومن الثانية ما أثبت نظيره في الأولى ، فذكر في الأولى لازم الإيمان وهو القتال في سبيل الله وذكر في الثانية ملزوم القتال في سبيل الشيطان وهو الكفر ". (الأندلسي ، 1993، ص2/ 411)

وتظهر بلاغة الاحتباك في أنه جلّ شأنه وصف الفئة المؤمنة بأنها تقاتل في سبيل الله ، ولم يقل : مؤمنة ، لأنه ذكر مكانه من أحكام الإيمان ما يليق بالمقام مدحا لهم واعتدادا بقتالهم ، والأخرى الكافرة لم تُوصف بما يقابل صفة الفئة الأولى إسقاطا لقتالهم عن درجة الاعتبار و إيذانا بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة . (العمادي ، ب ت ، ص2/ 12) . وثمّة لطيفة بلاغية وقعت في نظم الآية في قوله : " وأخرى كافرة " ولم يقل : (وفئة كافرة) إشعارا بأن الطائفتين ليستا متساويتين ، وإهمالا للثانية وتصغيرا لشأنها أن تُقرن بالمؤمنة . (الأسعد ، 2013 ، ص50)

ومن الفنون البلاغية التي وقعت في نظم الآية وتعضّد من شأن الاحتباك : التفصيل والتقسيم الوارد بعد الإجمال والجمع ، والتقديم والتأخير في قوله : " لكم آية " والأصل " آية لكم " وذلك للاعتناء بالمقدّم والتشويق للمؤخر . ويأتي تنكير " آية " للتفخيم والتهويل أي : آية عظيمة . (الصابوني ، 1981، ص3/ 190)

2-وفي قوله تعالى : {**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ** } (سورة آل عمران ، الآية : 30) . والمراد : أن النفس المكلفة تجد يوم القيامة ما عملته من خير محضرا لا نقص فيه ولا زيادة ، وما عملت من سوء حاضرا ملازما ، فما عملت من خير تود أنها لا تفارقه ولا ينقص منه شيء ، وما عملت من سوء تحب حبا شديدا لو أن بينها وبينه زمانا بعيدا . وفي الآية احتباك ضدي : ذكر إحضار الخير دلالة على حضور السوء ، وودّ بعُد السوء دلالة على لزوم الخير . (البقاعي ، 1971 ، ص4/ 330) وعلى هذا ، يكون المحذوف من الطرف الأول (تود لزوم الخير) ، لدلالة ذكر (تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) في الطرف الثاني ، و المحذوف من الطرف الثاني (من سوء حاضرا) ، لدلالة ذكر (من خير محضرا) في الطرف الأول . والتقدير : يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا تود لزومه وما عملت من سوء حاضرا تود لو أنها بينها وبينه أمدا بعيدا .

وفائدة الاحتباك : التهويل بيوم القيامة الذي تجد فيه كل نفس ما عملته في الدنيا من خير أو شر حاضرين . وقد آثر التعبير القرآني لفظة (محضرا) لأن فيها من التهويل ما ليس في (حاضرا) ، وخُصّ الإحضار بالذكر في الخير للإشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية . وفي إسناد الودادة إلى كل نفس سواء كان لها عمل سئ أو لا بل كانت متمحضة في الخير من الدلالة على كمال فضاعة ذلك اليوم وهوله . (العمادي ، ب ت ، ص2/ 24)

" ثم أخبر عزّ وجلّ أنه رؤوف بعباده رحيم بهم ، وأن من رأفته بهم تحذيره إياهم نفسه ، وتخويفهم عقوبته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه " (الطبري ، 1994، ص2/ 244) يقول الحقّ : " ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد " والآية من الاحتباك الضدي فـ " التحذير أولا دال على الوعد بالخير ثانيا ، والرأفة ثانيا دالة على الانتقام أولا " (البقاعي ، 1971 ، ص4/ 332) وعلى هذا ، فإن المحذوف من الطرف الأول (والله شديد الانتقام)، لدلالة ذكر (والله رؤوف بالعباد) في الطرف الثاني ، والمحذوف من الطرف الثاني (ويعدكم الله فضله) ، لدلالة ذكر (ويحذركم الله نفسه) ، والتقدير : ويحذركم الله نفسه والله شديد الانتقام ويعدكم الله فضله والله رؤوف بالعباد . وفائدته : بيان أن رحمته تعالى سبقت انتقامه فـ " وعده ورحمته ، غالب على وعيده وسخطه " (الرازي ، 1981 ، ص8/ 18) . والتحذير نوع من الرأفة بالعباد " لأنهم إذا عرفوه وحذروه جرهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه وذلك هو الفوز العظيم " (الألوسي ، ب ت ، ص3/ 128) . ويأتي التذييل في قوله : " والله رؤوف بالعباد " " للتذكير بأن هذا التحذير لمصلحة المُحَذرين " (ابن عاشور ، 1984 ، ص4/ 224)

3-وفي قوله تعالى : **{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا}** (سورة آل عمران ، من الآية : 37) . ومعنى الآية " أن الله جلّ ثناؤه تقبل مريم من أمها حنّة ، وتحريرها إياها للكنيسة وخدْمتها وخدمة ربها ، " بقبول حسن " " (الطبري ، 1994 ، ص2/ 247) ، وما كان من باب(التّفَعُّل) فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالتّصبّر مثلا فإنه يفيد الجدّ في إظهار الصبر ، فكذا ههنا التقبّل يفيد المبالغة في إظهار القبول (الرازي ، 1981 ، ص8/ 30) ، والباء في قوله : " بقبول حسن " للتأكيد ، و أصل نظم الكلام فتقبلها قبولا حسنا فأدخلت الباء على المفعول المطلق ليصير كالآلة للتقبل ، وهذا إظهار للعناية بها في هذا القبول .(ابن عاشور ، 1984 ، ص3/ 235)

وقوله : " وأنبتها " مجاز عن تربيته الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها (الزمخشري ، 2009 ، ص 170) فشبه إنشاؤها وشبابها بإنبات النبات الغض على سبيل الاستعارة التبعية .(ابن عاشور ، 1984 ، ص3/ 235)

ويأتي المصدر في قوله : " نباتا " مؤكدا للفعل(أنبتها) ، وقيل : لفعل مضمر موافق له تقديره : فنبتت نباتا حسنا (العمادي ، ب ت ، ص30/2) ، يقول الطاهر بن عاشور : " (ونبات) مفعول مطلق لأنبت وهو مصدر نبت و إنما أُجري على أنبت للتخفيف " (ابن عاشور ، 1984 ، ص3/ 235)

وفي قوله : " و أنبتها نباتا حسنا " احتباك متناظر . فَذِكْرُ (أنبت) أولا دال على حذف مصدره ثانيا ، وذِكْر (النبات) ثانيا دال على حذف فعله أولا . وعليه ، فإن المحذوف من الطرف الأول (إنباتا) ، لدلالة ذكر (نباتا) في الطرف الثاني ، والمحذوف من الطرف الثاني (نبتت) ، لدلالة ذكر (أنبتها) في الطرف الأول . والتقدير : أنبتها إنباتا فنبتت نباتا حسنا . وبلاغة الاحتباك تكمن في أنه " لمّا أنبأ القبول عن معنى ما أوليته باطنا ، أنبأ الإنبات عمّا أوليته ظاهرا في جسمانيتها ، وفي ذكر الفعل من (أفعل) في قوله : " و أنبتها " والاسم من الفعل في قوله : " نباتا حسنا " إعلام بكمال الأمرين : من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين ، فكمل في الإنباء والوقوع حسن التأثير وحسن الأثر ، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسنا " . (البقاعي ، 1971 ، ص4/ 356-357)

4-وفي قوله تعالى : {**فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**}(سورة آل عمران ، الآيتان : 56-57) . تأتي الآيتان تفسيرا للحكم المدلول عليه بقوله تعالى : { **فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** } (سورة آل عمران ، من الآية : 55) وتفصيلا له على سبيل التقسيم بعد الجمع (الألوسي ، ب ت ، ص3/ 184)

و بدأ تفصيل الحكم بقسم الكفار لأن " ما قبله من ذكر حكمه تعالى بينهم هو على سبيل التهديد والوعيد للكفار والإخبار بجزائهم فناسب البداءة بهم " (الأندلسي ، 1993، 2/ 499) . وقد علّق عذابهم على مجرد الكفر . ثم أتى بذكر المؤمنين وعلّق توفية أجورهم على الإيمان وعمل الصالحات تنبيها على درجة الكمال في الإيمان ودعاء إليها . وأما الحكم فيمن كفر فهو أنه يعذبه عذابا شديدا في الدنيا بالذل والهوان والقتل والأسر ، وفي الآخرة بعذاب النار ، وأما الحكم فيمن آمن وعمل الصالحات ، فهو أن يوفيهم أجورهم . (نفسه ، 2/ 499)

وقوله تعالى : { **وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ** } تذييل لقوله : " فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا و الآخرة " ، وقوله : { **والله لاَ يُحِبُّ الظالمين** } تذييل ثانٍ لقوله : " فأعذبهم عذابا شديدا " بصريح معناها ، أي : أعذبهم لأنهم ظالمون والله لا يحب الظالمين ، وتذييل لقوله : " وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم " بكناية معناها ، لأن انتفاء محبة الله للظالمين يستلزم أنه يحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلذلك يعطيهم ثوابهم وافيا . (ابن عاشور ، 1984 ، 3/ 261)

وهذه الآية من الاحتباك الضدي " فتوفية الأجر أولا ينفيها ثانيا ، و إثبات الكراهة ثانيا يثبت ضدها أولا " (البقاعي ، 1971 ، 4/ 423) ، والتقدير : " فنوفيهم لأنا نحبهم والله يحب المؤمنين ، والذين ظلموا نحبط أعمالهم ، لأنا لا نحبهم والله لا يحب الظالمين " . (نفسه ، 4/ 324) ، وفائدة الاحتباك : أنه أثبت للمؤمنين لازم المحبة المراد منها في حق الله تعالى لأنه أسرّ ، ولازم المراد من عدمها في الظالمين لأنه أنكأ . (نفسه ، 4/ 423-424)

ومن فنون البلاغة في الآية والتي تعضّد من شأن الاحتباك : الالتفات من التكلم في قوله : " فأحكم " إلى الغيبة في قوله : " فيوفيهم أجورهم " ، وهذا الالتفات " للإيذان بما بين مصدري التعذيب و الإثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال " (العمادي ، ب ت ، 2/ 45) . والتشبيه ، ف " الأجور ثواب الأعمال شبهه بالعامل الذي يوفي أجره عند تمام عمله " (الأندلسي ، 1993 ، 2/ 499) . والكناية عن بغض الكافرين في قوله : " والله لا يحب الظالمين " .

5-وفي قوله تعالى : { **وللَّهِ عَلى النّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إلَيْهِ سَبِيلا ومَن كَفَرَ فَإنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ** } (سورة آل عمران ، من الآية : 97) سيقت هذه الآية الكريمة لبيان أن الحج " فرض واجب لله – على من استطاع من أهل التكليف إلى حج بيته – الحج إليه " (الطبري ، 1994 ، 2/ 294) . ولمّا كان من الواضح أن التقدير : ومن لم يحجه مع الاستطاعة كفر بالنعمة إن كان معترفا بالوجوب ، و بالمروق من الدين إن جحد ، عطف عليه قوله : " ومن كفر " . (البقاعي ، 1971 ، 5/ 9) وقد وضع جلّ شأنه " من كفر " موضع من لم يحج تأكيدا لوجوبه وتشديدا على تاركه . (العمادي ، ب ت ، 2/ 62)

والآية من الاحتباك الضدي : لأن " إثبات فرضه أولا يدل على كفر من أباه ، و إثبات " ومن كفر " ثانيا يدل على إيمان من حجه " (البقاعي ، 1971 ، 5/ 10) وعلى هذا ، فإن المحذوف من الطرف الأول (كان مؤمنا) ، لدلالة ذكر " ومن كفر " في الطرف الثاني ، والمحذوف من الطرف الثاني (ومن لم يحج مع الاستطاعة) لدلالة ذكر " حج البيت من استطاع إليه سبيلا " في الطرف الأول . والتقدير : ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا فمن حج كان مؤمنا ومن لم يحج مع الاستطاعة كفر بالنعمة وقيل في تقديره أيضا : ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا فمن حج كان مؤمنا ومن لم يحج مع الاستطاعة كان كافرا ، بدليل سبب نزول الآية ، فلمّا نزلت آية الحج جمع الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم ، فقال : يا أيها الناس ، إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا ، فآمنت به

ملّة واحدة وهي من صدّق النبي وآمن به ، وكفرت به خمس ملل ، قالوا : لا نؤمن به ، ولا نصلّي إليه ، ولا نستقبله . (القرشي ، 2009 ، ص 328 ، الرازي ، 1981 ، 8/ 169)

والاحتباك هنا ثمرته : إظهار " كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه " (العمادي ، ب ت ، 2/ 62) و ذلك بتقبيح فعل ترك الحج وجعله كفعل من لا يؤمن بالله تعالى ورسله .

ومن لطائف النظم المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتغليظ على تاركه :

1- إيثار صيغة الخبر الدالة على التحقق و إبرازها في صورة الجملة الإسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أن الحج حقّ واجب لله تعالى في ذمم الناس لا انفكاك لهم عن أدائه والخروج عن عهدته .

2- سلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص ، والإبهام ثم التبيين ، والإجمال بعد التفصيل لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير .

3- عبّر عن ترك الحج بالكفر الذي لا قبيح ورائه . وجعل جزاءه استغناءه سبحانه المؤذن بشدة المقت وعظيم السخط .لا عن تاركه فقط ، فإنه قد ضرب عنه صفحا إسقاطا له عن درجة الاعتبار و استهجانا بذكره بل عن جميع العالمين ممن فعل وترك ليدل على نهاية شدّة الغضب . (العمادي ، ب ت ، 2/ 62)

6-وفي قوله تعالى : { **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } " (سورة آل عمران ، الآيتان : 104-105) صُدرت الآية الأولى بأمر رباني من الله تعالى إلى المؤمنين بأن تكون منهم أمة تدعو إلى الخير ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وهو " تنبيه لهم على أن يلازموا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه رضي الله تعالى عنهم من أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر " (البقاعي ، 1971 ، 4/ 18) ، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الدعاء إلى الخير مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام لإظهار فضلهما و إنافتهما على سائر الخيرات.(العمادي ، ب ت ، 2/67) ويأتي قوله تعالى:{**وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**}ترغيبا في ملازمة ما أمروا به . وفيه " معنى البعد للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل " (نفسه ، 2/ 68) فهم " المُنْجحون عند الله الباقون في جناته ونعمه " (الطبري ، 1994 ، 2/ 301)

ولمّا أمر الحق تبارك وتعالى بذلك في الآية السابقة ، أكده بالنهي عمّا يضاده ممن نزلت هذه الآيات فيهم من أهل الكتاب مبكّتا لهم بضلالهم و اختلافهم في دينهم على أنبيائهم (البقاعي ، 1971 ، 4/ 20) ، ومعنى النهي : " لا تتفرقوا يا معشر المسلمين في دينكم تفرّق هؤلاء في دينهم ، ولا تفعلوا فعْلهم ، ولا تستنّوا في دينكم بسنّتهم ، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم " . (الطبري ، 1994 ، 2/ 301) .و يأتي قوله تعالى : {**وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } ترهيبا من التفرّق والاختلاف في الدين . وقدّم التفرّق على الاختلاف للإيذان بأن الاختلاف علّة التفرق . (ابن عاشور ، 1984 ، 4/ 43) وفيه " من التأكيد والمبالغة في وعيد المتفرقين والتشديد في تهديد المشبهين بهم ما لا يخفى " (العمادي ، 2/ 68) وفي قوله :{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } ، و قوله : " و أولئك لهم عذاب عظيم " احتباك ضدي ، يقول البقاعي : " إثبات المفلحون أولا يدل على الخاسرين ثانيا ، و العذاب العظيم ثانيا يدل على النعيم المقيم أولا " (البقاعي ، 1971 ، 4/ 21) وعلى هذا ، فإن المحذوف من الطرف الأول (لهم نعيم مقيم) ، لدلالة ذكر " لهم عذاب عظيم " في الطرف الثاني ، والمحذوف من الطرف الثاني (وهم الخاسرون) ، لدلالة ذكر قوله : " وهم المفلحون " في الطرف الأول . والتقدير : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولهم نعيم مقيم و أولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات فأولئك هم الخاسرون ولهم عذاب عظيم . والسر البلاغي للاحتباك " أنه ذكر أعلى أحوال الكمال تنبيها لشرفهم , و ترغيبا في جميل صنعهم ، و أنكأ ما يؤول إليه الخاسرون ترهيبا لشناعة فعلهم " (القرشي ، 2009 ، ص 509) ، و تتجلى بلاغته أيضا في إظهار المفارقة الجزائية بين من يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فينالون بذلك نعيما مقيما ، والذين تفرقوا و اختلفوا في الدين من أهل الكتاب فنالوا بذلك عذابا عظيما . وقصر الصفة على الموصوف في قوله : " و أولئك هم المفلحون " يعضّد من شأن الاحتباك ، ف " جملة " و أولئك هم المفلحون " معطوفة على صفات أمة وهي التي تضمنتها جمل " يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " والتقدير : وهم مفلحون : لأن الفلاح لما كان مسببا على تلك الصفات جعل بمنزلة صفة لهم " . (ابن عاشور ، 1984 ، 4/ 42)

7-وفي قوله تعالى : { **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } (سورة آل عمران ، الآيتان : 106-107) يصوّر هذا النظم الكريم مشهدا من مشاهد يوم القيامة ، يوم تبيض

وجوه ، وتسود وجوه . " فمن كان من أهل نور الحق ، وُسم ببياض اللون و إسفاره و إشراقه ... ومن كان من أهل ظلمة الباطل ، وُسم بسواد اللون وكسوفه وكمده " . (الزمخشري ، 2009 ، ص 188) وقد ابتُدئ بالبياض لشرفه ، و أنه الحالة المثلى . والمراد بالوجوه : وجوه المؤمنين ، ووجوه الكافرين . (الأندلسي ، 1993 ، 3/ 25)

وقوله تعالى

: { **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُون ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون** } ، تفصيل لأحكام من تبيض وجوههم وتسود . وقد ابتدئ بالذين اسودت وجوههم للاهتمام بالتحذير من حالهم ، ولمجاورة قوله تعالى : { وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } (نفسه ، 3/ 26) ، ولأن " المقام للترهيب وزيادة النكاية لأهله " . (البقاعي ، 1971 ، 4/ 21)

وفي تفصيل الحكم إيجاز لأن أصل الكلام ، فأما الذين اسودت وجوههم فهم الكافرون يقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، و أما الذين ابيضت وجوههم فهم المؤمنون وفي رحمة الله هم فيها خالدون . (ابن عاشور ، 1984 ، 4/ 44) فحصل بهذا احتباك ضدي ، إذ إن " إثبات الكفر أولا دال على إرادة الإيمان ثانيا ، و إثبات الرحمة ثانيا دلّ على حذف اللعنة أولا " . (البقاعي ، 1971 ، 4/ 22) وعلى هذا ، فإن المحذوف من الطرف الأول (اللعنة) ، لدلالة ذكر (الرحمة) في الطرف الثاني ، والمحذوف من الطرف الثاني (الإيمان) ، لدلالة ذكر (الكفر) في الطرف الأول . والتقدير : فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فأدخلوا في لعنة الله و ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، و أما الذين ابيضت وجوههم فهم المؤمنون وفي رحمة الله هم الخالدون . وفائدته : الكشف عن هول يوم القيامة وما يحصل فيه من بياض وجوه ترغيبا ، وسواد وجوه ترهيبا . فـ " في تعريف هذا اليوم بحصول بياض وجوه وسواد وجوه فيه ، تهويل لأمره ، وتشويق لما يرد بعده من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضّة ، و الوجوه المسودّة : ترهيبا لفريق وترغيبا لفريق آخر " . (ابن عاشور ، 1984 ، 4/ 44) و أيضا بيان حال أهل الإيمان وما يكون لهم من النعيم المقيم ، وحال أهل الكفر وما يكون لهم من العذاب الأليم .

وفي تدبّر هذا النظم الكريم فنون بلاغية تعضّد من شأن الاحتباك ، من أبرزها : الكناية في قوله : " يوم تبيض وجوه وتسود وجوه " فـ " بياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه " (البيضاوي ، ب ت ، 2/ 32) ، والاستفهام في قوله : " أكفرتم " " للتوبيخ والتعجب من حالهم " (الزمخشري ، 2009 ، ص 188) ، والمجاز المرسل في قوله : " ففي رحمة الله " أي: " الجنة فهو من

التعبير بالحال عن المحل " (الألوسي ، ب ت ، 4/ 26) وقد عُبّر عن الجنة بالرحمة " تنبيها على أن المؤمن و إن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته و فضله " (البيضاوي ، ب ت ، 2/ 32) ، وتفصيل حكم من اسودت وجوههم و ابيضت وجوههم عن طريق النشر المعكوس ، فعند وصف يوم القيامة ابتُدئ بمن ابيضّت وجوههم ، وعند تفصيل الحكم ابتُدئ بحكم من اسودّت وجوههم . والطباق بين تبيضّ ، وتسودّ وأفاد الطباق في " رسم صورة المؤمنين و الكافرين و طريقة حشر كل منهم ، فالمؤمنون يُحشرون في أجمل صورة و أكرمها و أشرفها ، فهم بيض تسر رؤيتهم ، أما الكافرون فيُساقون في أبشع صورة ، فهم سود الوجوه أدلاء يوم القيامة " (الأسعد ، 2013 ، ص66) ، والمقابلة بين حال من اسودت وجوههم ، وحال من ابيضت وجوههم ، والمقابلة بين الحالين تُظْهر إلي أي مدى من حسن الثواب وصل المؤمنون ، وإلى أي درك من سوء العقاب وصل الكافرون . والتقديم والتأخير في وصف يوم القيامة ، وتفصيل الحكم فيه . فعند وصف اليوم قُدّم ذكر البياض ، تشريفا لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله ، ثم قُدّم في التفصيل ذكر سمة أهل الكفر تعجيلا بمساءتهم . (ابن عاشور ، 1984 ، 4/ 45) وابتدأ بالمؤمنين ، واختتم بحكمهم ، ليكون مطلع الكلام و مقطعه شيئا يسر الطبع و يشرح الصدر (الأندلسي ، 1993، 3/ 26) و " تنبيها على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب " (الرازي ، 1981 ، 187/8) ، وجاء الأمر في قوله : " فذوقوا العذاب " على طريق الإهانة ، (العمادي ، ب ت ، 2/ 69) وذلك على سبيل الاستعارة التهكمية .

8- وفي قوله تعالى : { **إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } (سورة آل عمران ، الآية : 122) الطائفتان اللتان همتا بالفشل : بنو سلمة وبنو حارثة ، ومعنى " أن تفشلا " أن يَضْعُفا ويَجْبُنا عن لقاء العدو . وكان همهما الذي همّا به من الفشل الانصراف عن الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حين انصرف عنه عبد الله بن أُبي بن سلول بمن معه ، جبنا منهم ، من غير شك منهم في الإسلام ولا نفاق ، فعصمهم الله تعالى مما همّوا به من ذلك ، ومضوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم لوجهه الذي مضى له ، وتركوا عبد الله بن سلول والمنافقين معه ، فأثنى الله تعالى عليهما بثبوتهما على الحق ، و أخبر أنه وليهما وناصرهما على أعدائهما من الكفار . (الطبري ، 1994 ، 2/ 321) أو " ناصرهما على ذلك الهمّ الشيطاني ، الذي لو صار عزما لكان سبب شقائهما ، فلعناية الله بهما برّأهما الله من فعل ما همّتا به " (ابن عاشور ، 1984 ، 4/ 70)

ولمّا ذكر الله تعالى ما همّت به الطائفتان من الفشل ، و أخبر أنه وليهما ، أمرهم بالتوكل عليه في قوله : " وعلى الله فليتوكل المؤمنون " . ونبّه على الوصف الذي يقتضي ذلك ، وهو الإيمان ، لأن من آمن بالله خير ألاّ يكون إتكاله إلا عليه . و أتى بذلك الوصف عاما لتندرج الطائفتان الهامتان ، و غيرهم في هذا الأمر ، وفي هذا الأمر تحريض على التغبيط بمثل ما فعله ، بنو حارثة وبنو سلمة من اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والسير معه . (الأندلسي ، 1993 ،3/ 51)

وفي قوله : " والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون " احتباك متشابه ، فـ " الأمر بالتوكل ثانيا دال على وجوده أولا ، و إثبات الولاية أولا دال على الأمر بها ثانيا " (البقاعي ، 1971 ، 5/ 49) وعلى هذا ، فإن قوله تعالى في الطرف الأول : { **وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**} يدل على محذوف من الطرف الثاني تقديره : (فتولوا الله) ، وقوله تعالى في الطرف الثاني: { **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } يدل على محذوف من الطرف الأول تقديره : (لتوكلهما و إيمانهما) . والتقدير : " والله وليهما لتوكلهما و إيمانهما فلم يمكن الفشل منهما ، فتولوا الله وتوكلوا عليه ليصونكم من الوهن ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون كلهم ليفعل بهم ذلك " (نفسه ، 5/ 49)

وفائدة الاحتباك تكمن في " أنه ذكر الولاية أولا والتوكل ثانيا ، لكونهما أنبل عُدَد المجاهد و أعظم أسباب السعادة ترغيبا في الإقبال على الحق ، ومتابعة الرسول صلى الله غليه وسلم " (القرشي، 2009 ، 337-338) وأيضا الثناء على الطائفتين بثبوتهما على الحق ، في اتباعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والسير معه بأن أخبر جلّ وعلا أنه وليهما وناصرهما على أعدائهما من الكفار .

9-وفي قوله تعالى : { **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** } (سورة آل عمران ، الآية : 128) " " أو يتوب " عطف على ما قبله [" ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين "](سورة آل عمران ، الآية : 127) . " وليس لك من الأمر شيء " اعتراض . والمعنى : أن الله مالك أمرهم فإما يهلكهم أو يهزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ، وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم " (الزمخشري ، 2009 ، ص 194) وقد اُختُلف في سبب نزول هذه الآية ، و ملخّصه أنه صلى الله عليه وسلم لعن ناسا أو شخصا عُيّن أنه عتبة بن أبي وقاص ، أو أشخاصا دعا عليهم ، و عُيّنوا أبا سفيان والحارث بن هشام ، وصفوان بن أمية ، أو قبائل عُيّن منها لحيان ورعل و ذكوان وعصية ، أو همّ بسبب الذين انهزموا يوم أُحُد ، أو أستأذن ربه أن يدعو ، ودعا يوم أحد حين شُجّ في وجهه و كُسرت رباعيته ورُمي بالحجارة حتى صرع لجنبه ،

فلحقه الناس من فلاحهم ، ومال إلى أن يستأصلهم الله ويريح منهم فنزلت ، فعلى هذه الأسباب يكون معنى الآية : التوقيف على أن جميع الأمور إنما هي لله تعالى فيدخل فيها هداية هؤلاء ، و إقرارهم على حالة ، وفي خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم دليل على صدور أمر منه ، أو همّ به ، أو أستئذان في الدعاء ، و أن عواقب الأمور بيد الله تعالى . (الأندلسي ، 1993 ، 56/3)

ويجوز في قوله تعالى : { **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ** } أن يُحمل على صريح لفظه ، فيكون المعنى نفي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم ، أي لقتاله الكفار بجيشه من المسلمين ، تأثير في حصول النصر يوم بدر ، فإن المسلمين كانوا في قلّة من كل جانب من جوانب القتال ، أي فالنصر حصل بمحض فضل الله على المسلمين . فلفظ الأمر بمعنى الشأن الذي عرفتموه وهو النصر . ويجوز أن يُحمل على أنه كناية عن صرف النبي صلى الله عليه وسلم عن الاشتغال بشأن ما صنع الله بالذين كفروا ، من قطع طرفهم ، وكبتهم ، أوتوبة عليهم ، أو تعذيب لكم : أي فذلك موكول لله تعالى يحققه متى أراد ، ويتخلف متى أراد ، على حسب ما تقتضيه حكمته ، وذلك كالاعتذار عن تخلف نصر المؤمنين يوم أحد . فلفظ الأمر بمعنى شأن المشركين . وهذا تذكيربما كان للنبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر من تخوف ظهور المشركين عليه ، و إلحاحه في الدعاء بالنصر . ولعل النبي صلى الله عليه وسلم كان يودّ استيصال جميع المشركين يوم بدر حيث وجد مقتضى ذلك وهو نزول الملائكة لإهلاكهم ، فذكّره الله بذلك أنه لم يقدّر استيصالهم جميعا بل جعل الانتقام منهم ألوانا فانتقم من طائفة بقطع طرف منهم ، ومن بقيتهم بالكبت ، وهو الحزن على قتلاهم ، وذهاب رؤسائهم ، واختلال أمورهم ، واستبقى طائفة ليتوب عليهم ويهديهم ، فيكونوا قوة للمسلمين فيؤمنوا بعد ذلك ، وهم من آمن من أهل مكة قبل الفتح ويوم الفتح ، وعذب طائفة عذاب الدنيا بالقتل أو الأسر ، فلذلك قيل له : " ليس لك من الأمر شيء " (ابن عاشور ، 1984 ، 4/ 80)

وفي قوله : " أو يتوب عليهم أو يعذبهم " حذف على سبيل الاحتباك المشترك ، فذْكر التوبة أولا دليل على نفيها ثانيا ، و ذكْر العذاب ثانيا دليل على حذف ضده أولا . وعلى هذا ، فإن المحذوف من الطرف الأول (فيرحمهم) بدليل قوله تعالى : { **أَوْ يُعَذِّبَهُمْ** } في الطرف الثاني ، و المحذوف من الطرف الثاني (فلا يتوب عليهم) بدليل قوله تعالى : " {**أو يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** } في الطرف الأول . والتقدير : وليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم فيرحمهم إن أسلموا أو يعذبهم فلا يتوب عليهم إن أصروا على الكفر . وبهذا جمعت الآية بين نوعين من الاحتباك : الضدي و المثبت المنفي ، وسرّه البلاغي : إرضاء النبي صلى الله عليه وسلم من جانب تطويع المشركين له ، يقول ابن عاشور : " وجعل هذه الجملة (ليس لك من الأمر شيء

) قبل قوله : " أو يتوب عليهم " استئناس للنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ قُدّم ما يدل على الانتقام منهم لأجله ، ثم أردف بما يدل على العفو عنهم ، ثم أردف بما يدل على عقابهم ، ففي بعض هذه الأحوال إرضاء له من جانب الانتصار له ، وفي بعضها إرضاء له من جانب تطويعهم له . و لأجل هذا المقصد عاد الكلام إلى بقية عقوبات المشركين بقوله : " أو يعذبهم " "(نفسه ، 4/ 80)

10–وأيضا في قوله تعالى : {**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** } (سورة آل عمران ، الآية : 144) أُنزلت هذه الآية على الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن انهزم عنه بأُحد من أصحابه . (الطبري ، 1994 ، 2/ 337) والمعنى : إن محمدا صلى الله عليه وسلم سيخلو كما خلى الرسل من قبله ، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فعلى المسلمين أن يتمسكوا بدينه بعد خلوه ، لأن الغرض من بعثة الرسول تبليغ أتباعه الرسالة و إلزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه . والهمزة في قوله : " أفإن مات " لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل ، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سببا للتمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم لا الانقلاب عنه . (الزمخشري ، 2009 ، ص 198)

ومعنى الانقلاب : " الرجوع إلى المكان ، يقال : انقلب إلى منزله ، وهو مجاز في الرجوع إلى الحال التي كانوا عليها ، أي حال الكفر " . (ابن عاشور ، 1984 ، 113/4) والغرض من قوله تعالى : { **وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً** } تأكيد الوعيد ، لأن كل عاقل يعلم أن الله تعالى لا يضرّه كفر الكافرين ، بل المراد أنه لا يضرّ إلا نفسه . ثم اتبع الوعيد بالوعد فقال : " و سيجزي الله الشاكرين " (الرازي ، 1981 ، 9/ 23) أي : " ومن سار ثابتا على المنهج السوي فإنما ينفع نفسه لشكره الله ". (البقاعي ، 1971 ، 83/5) ووضع الشاكرين موضع الثابتين لأن الثبات عن ذلك ناشيء عن تيقن حقّيته وذلك شكر لله وفيه إيماء إلى كفر المنقلبين . (الألوسي ، ب ت ، 4/ 75)

و الآية من الاحتباك الضدي : " أثبت الانقلاب وعدم الضّر أ ولا دليلا على حذف ضده ثانيا ، و الجزاء ثانيا دليلا على حذف مثله أولا " (البقاعي ، 1971 ، 5/ 83) وعلى هذا ، فالمحذوف من الطرف الأول (وسيجزي الله الشاكرين) ، لدلالة ذكر " وسيجزي الله الشاكرين " في الطرف الثاني ، و المحذوف من الطرف الثاني (ومن سار ثابتا على المنهج السوي فإنما ينفع نفسه) ، لدلالة ذكر " ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئا " في الطرف الأول . والتقدير : ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا

وسيجزي الله الشاكرين ومن سار ثابتا على المنهج السوي فإنما ينفع نفسه وسيجزي الله الشاكرين . وتكمن بلاغة الاحتباك في أنه يكشف عن حال المنقلب عند هلاك الرسول صلى الله عليه وسلم بموت أو قتل ، ترغيبا في التمسك بالإسلام ، وترهيبا من الانقلاب عليه ، إذ إن " الحاجة إلى الرسول لتبليغ الدين وبعد ذلك فلا حاجة إليه ، فلم يلزم من قتله فساد الدين " (الرازي ، 1981 ، 9/ 23) ، وفضلا على ذلك ، يأتي الاحتباك عتابا على ما وقع من المسلمين من الاضطراب حين أرجف بموت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وثناء على من ثبتوا ، وتحذيرا من وقوع الارتداد عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم

11-وفي قوله تعالى : { **أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } (آل عمران ، الآية : 162) الاستفهام في هذا النظم الكريم معناه النفي ، أي : ليس من اتبع رضوان الله فامتثل أوامره واجتنب نواهيه ، كمن عصاه ، فباء بسخطه . (الأندلسي ، 1993 ، 3/ 107) ، وفي قوله : " فمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله " احتباك ضدي ، فذكْر اتباع رضا الله أولا دال على حذف ضده ثانيا ، و ذكْر الإباء بسخط الله ثانيا دال على حذف ضده أولا . (القرشي ، 2009 ، ص 532) ويقدّر أبو حيان الأندلسي محذوفاته بقوله : " فمن اتبع ما يؤول به إلى رضا الله عنه ، فباء برضاه . كمن لم يتبع ذلك فباء بسخطه " (الأندلسي ، 1993 ، 3/ 107)

وقوله تعالى : {**وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ** } سيق لبيان حال من باء بسخط من الله ويُفهم من مقابله : أن من اتبع رضوان الله كان مأواه الجنة ولم يذكر ذلك ليكون أبلغ في الزجر ، وقيل : لم يذكر مع الرضوان الجنة لأن رضوان الله تعالى أكبر وهو مستلزم لكل نعيم وكون السخط مستلزما لكل عقاب فيقتضي أن تُذكر معه جهنم . (الألوسي ، ب ت ، 4/ 112) وبناء على هذا ، وعلى ما تقدم ، نجد من يقدّر محذوفات الاحتباك بقوله : " أفمن اتبع رضوان الله فباء برضاه ومأواه الجنة كمن اتبع سبيل الشيطان فباء بسخط من الله و مأواه جهنم وبئس المهاد " (الأسعد ، 2013 ، ص 80) ، والمتضح من هذا الاحتباك ، أنه أسهم في نفي التسوية بين من اتّبع رضوان الله ومن أعرض عنه ليثبت حقيقة التباين بينهما في الجزاء ، فليس ما للمتبع لرضوان الله من حسن الجزاء مثل ما لباء بسخط من الله من سوء الجزاء . وهذا مؤداه : الترغيب في الإيمان ، والترهيب من الكفر . فقد " ذكر أفضل ما يكون من أهل الطاعة والإيمان ترغيبا بالنتيجة السعيدة للفوز برضا الله . ثم أنكأ ما يؤول إليه أهل المعصية والكفر ، ترهيبا بالنهاية المشقية لأهلها بجامع عدم المساواة بينهما " . (القرشي ، 2009 ، ص 532) ومما يعضّد من شأن الاحتباك : الاستفهام ، وقد جيء به لإنكار المماثلة المستفادة من كاف التشبيه فهو بمعنى لا يستوون . والتشبيه

في قوله : " فمن اتبع رضولان الله " فقد شبه حال المتوخي بأفعاله رضا الله بحال المتطلّب لطلْبة فهو يتبعها حيث حلّ ليظفر بها ، وتكمن بلاغة هذا التشبيه في حسن التنبيه على أن التحصيل على رضوان الله تعالى محتاج إلى فرط اهتمام .والتمثيل في قوله : " كمن باء بسخط من الله " فهذا تمثيل لحال صاحب المعاصي بحال من خرج يطلب ما ينفعه فرجع بما يضرّه .(ابن عاشور ، 1984 ، 4/ 166) ومقابلة رضوان الله تعالى بسخطه ، والاتباع بالبوء ، وقد عُلم من هذه المقابلة حال أهل الإيمان ، وأهل الكفر . (العمادي ، ب ت ، 2/ 162 ، ابن عاشور ، 1984 ن 166/4) وطباق الإيجاب بين (رضوان ، وسخط) وغايته : التأكيد على نفي التسوية بين حال من اتبع رضوان الله ، وحال من باء بسخطه . وفيه " استشعار عظم الفرق بين حسن الرضوان ، وقبح السخط " (القرشي ، 2009 ، ص 533) . و إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار وذلك في قوله : " بسخط من الله " ، لإدخال الروعة وتربية المهابة . (العمادي ، ب ت ، 2/ 107)

12–وفي قوله تعالى : { **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**} (سورة آل عمران ، الآية : 190) هذه الآية جملة مستأنفة لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها . والمراد ذات السموات و الأرض ، وصفاتهما . والمراد بـ " اختلاف الليل والنهار " تعاقبهما ، وكون كل واحد منهما يخلف الآخر ، وكون زيادة أحدهما في نقصان الآخر ، وتفاوتهما طولا و قصرا ، حرّا وبردا ، وغير ذلك . (الشوكاني ، 2007 ، ص 262)

وقد ذكر الله تعالى هذه الآية في سورة البقرة ، وذكرها هنا أيضا . وذكر في سورة البقرة ثمانية أنواع من الدلائل ، و ههنا أعاد ثلاثة أنواع منها وهي : السموات ، و الأرض ، واختلاف الليل والنهار . فالمولى عزّ وجلّ استقصى في هذه الآية الدلائل السماوية و حذف ما ورد في سورة البقرة من الدلائل الأرضية ، وذلك لأن الدلائل السماوية أقهر و أبهر ، والعجائب فيها أكثر ، وانتقال القلب منه إلى عظمة الله وكبريائه أشد . (الرازي ، 1981 ، 9/ 139)

وتقديم الليل على النهار ، إما لأنه الأصل فإن غرر الشهور تظهر في الليالي و إما لقدمه في الخلفية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى : {**وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**}(سورة يس ، من الآية : 37) أي : نزيله منه فيخلفه . (العمادي ، ب ت ، 2/ 127)

وفي جمع السموات ، و إفراد الأرض ، يقول ابن عاشور في تفسير نظير هذه الآية في سورة البقرة : " " السموات " جمع سماء والسماء إذا أُطلقت مفردة فالمراد بها الجو المرتفع فوقنا الذي يبدو و كأنه قبة زرقاء

و هو الفضاء العظيم الذي تسبح فيه الكواكب ... وإذا جُمعت فالمراد بها أجرام عظيمة ذات نظام خاص مثل الأرض وهي السّيارات العظيمة المعروفة والتي عرفت من بعد والتي ستُعرف : عطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والشمس ، والمشتري ، وزحل ، وأرانوس ، ونبتون ، ولعلها هي السموات السبع والعرش العظيم ، وهذا السّر في جمع السموات هنا و إفراد الأرض لأن الأرض عالم واحد و أما جمعها في بعض الآيات فهو على معنى طبقاتها أو أقسام سطحها " . (ابن عاشور ، 1984 ، 4/ 77)

ومعنى " لآيات لأولي الألباب " لعلامات واضحة على الصانع ، وباهر حكمته ، ولا يظهر ذلك إلا لأصحاب العقول ، ينظرون في ذلك بطريق الفكر والاستدلال . (الأندلسي ، 1993 ، 145/3) وتنكير " لآيات " للتفخيم كمّا و كيفا . (العمادي ب ت، 2/ 127) وجمع القلّة هنا قائم مقام جمع الكثرة ، وفي ذلك رمز إلى أن الآيات الظاهرة و إن كانت كثيرة في نفسها إلا أنها قليلة في جنب ما خفي منها في خزائن العلم و مكامن الغيب ولم يظهر . (الألوسي ، ب ت ، 4/ 156)

وفي قوله تعالى : { **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } احتباك متشابه ، فقد ذكر الخلق أولا دليلا على حذفه ثانيا ، و الاختلاف ثانيا دليلا على حذفه أولا . وعلى هذا ، فالمحذوف من الطرف الأول (اختلافهما) ، لدلالة ذكر " .،واختلاف الليل والنهار " في الطرف الثاني ، والمحذوف من الطرف الثاني (خلقهما) ، لدلالة ذكر " خلق السموات و الأرض" في الطرف الأول . وتقديره : إن في خلق السموات والأرض و اختلافهما واختلاف الليل والنهار و خلقهما لآيات لأولي الألباب . وفائدة الاحتباك : التدليل على و حدانية الله تعالى ، وباهر حكمته . و " وجه دلالة المذكورات على وحدته تعالى أنها تدل على وجود الصانع لتغيرها المستلزم لحدوثها و استنادها إلى مؤثر قديم ومتى دلّت على ذلك لزم منه الوحدة ، ووجه دلالتها على ما بعد أنها في غاية الإتقان ونهاية الإحكام لمن تأمل فيها وتفكر في ظاهرها و خافيها وذلك يستدعي كمال العلم والقدرة كما لا يخفى " (نفسه ، 4/ 156– 157) فالآية بما ورد فيها من احتباك " لفتت الأنظار إلى التّفكّر و التّدبّر في ملكوت السموات والأرض ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوحدانية الله وباهر قدرته " (الصابوني ، 1981 ، 4/ 251)

الخاتمة :

يمكن لنا بعد دراسة بلاغة أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم من خلال سورة آل عمران أن نستخلص جملة من النتائج ، أهمها ما يأتي :

1- يُعدّ الاحتباك أسلوبا من أساليب التعبير التي تميّز بها القرآن الكريم ، فهو يُكْثر من استخدامه ، ويجعله أداة فنية للبيان.

2- يمثل الاحتباك مظهرا من مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم .

3- يكشف الاحتباك عن كلام محذوف ، يؤدي تقدير محذوفاته إلى تكامل المعنى .

4- يترك الحذف على سبيل الاحتباك مساحة للقارئ في المشاركة و إعمال فكره في تقدير المحذوف . وفي هذا تحقيق لجانب التّدبّر في كتاب الله تعالى وذلك بالتأمل في آياته والغوص في معانيها والتعمق في فهمها .

5- وقد تبيّن من خلال دراسة أسلوب الاحتباك في سورة آل عمران ما يأتي :

- كثرة مواضع الاحتباك الضدي في سورة آل عمران مقارنة بأنواع الاحتباك الأخرى ، وذلك لأنه من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في التمييز بين ضدين .
- أظهرت الدراسة دور الفنون البلاغية المختلفة في استنتاج الاحتباك وتقديره ، كأن يأتي ركنا الاحتباك كركنين للتشبيه أو كركنين للمقابلة أو الطباق ، وهذا دال على تآزر فن الاحتباك مع غيره من الفنون البلاغية الأخرى .
- بيّنت الدراسة أن لكل موضع من مواضع الاحتباك في سورة آل عمران نكتة بلاغية تحققت باستعماله ، و أن معرفة هذه النكت هي وسيلة إلى إدراك شيء من أسرار الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم

ثبت المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

2- ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده ، 1939 م .

3- الأسعد ، عدنان عبد السلام ، بلاغة الحذف التركيبي في القرآن الكريم " الاحتباك أنموذجا " ، عمّان – المملكة الأردنية الهاشمية ، دار غيداء ، 2013 م .

4- الألوسي ، شهاب الدين السيد محمود البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، بيروت –لبنان ، دار إحياء التراث العربي .

5- البقاعي ، أبو الحسن إبراهيم بن عمر ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه : محمد عمران الأعظمي ، وعني بتنقيحه : حبيب الله القادري ، 1971 م .

6- البيضاوي ، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد ، أنوار التنزيل و أسرار التأويل ، إعداد وتقديم : محمد عبد الرحمن المرعشلي ، ط 1 ، بيروت – لبنان ، دار إحياء التراث العربي .

7- الثوابية ، هيثم حماد ، من الاحتباك إلى الاعتداد بالمبنى العدمي ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد : 87 ، السنة الثامنة والثلاثون ، تموز كانون الأول ، 2014 م .

8- الجوهري ، أبو نصر إسماعيل بن حماد ، الصّحاح تاج اللغة و صحاح العربية ، تحقيق : محمد محمد تامر ، أنس محمد الشامي ، زكريا جابر أحمد ، القاهرة ، دار الحديث ، 2009 م .

9- حماش ، خالد محمد ، الاحتباك والحذف التقابلي في القرآن الكريم ، تكثيف وتماسك في العبارة و وضوح وحجاج الدلالة ، جامعة الأزهر ، حولية كلية اللغة العربية ، المجلد السادس والعشرون ، الجزء الثالث ، ديسمبر ، 2022م .

10- أبو حيان الأندلسي ، محمد بن يوسف ، البحر المحيط ، دراسة وتحقيق وتعليق : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض و آخرون ، ط 1 ، بيروت – لبنان ، دار الكتب العلمية ، 1993 م .

11- الرازي ، فخر الدين محمد بن عبد الله بن عمر التميمي ، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ، ومفاتيح الغيب ، ط 1 ، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع ، 1981 م .

12- ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحسن ، العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده ، ط 1 ، بيروت – لبنان ، دار مكتبة الهلال ، 1998 م .

13- الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : أبو الفضل الدمياطي ، القاهرة ، دار الحديث ، 2006 م .

14 – الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ، اعتنى به وخرّج أحاديثه و علّق عليه : مأمون شيحا ، ط 3 ، بيروت – لبنان ، دار المعرفة ، 2009 م

15- السجلماسي ، أبو محمد القاسم الأنصاري ، المنزع البديع في تحسين أساليب البديع ، تحقيق : علاء الغازي ، ط 1 ، الرباط – المغرب ، مكتبة المعارف ، 1980 م .

16- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، الإتقان في علوم القرآن ، اعتنى به و علّق عليه : مصطفى شيخ مصطفى ، ط 1 ، دمشق – سوريا ، مؤسسة الرسالة ، 2008 م .

17- الشريف الجرجاني ، علي بن محمد بن علي ، معجم التعريفات ، تحقيق : محمد صدّيق المنشاوي ، القاهرة ، دار الفضيلة .

18- الشعراوي ، محمد متولي ، تفسير الشعراوي – الخواطر ، مطابع أخبار اليوم .

19- الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ، فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير ، اعتنى به و راجع أصوله : يوسف الغوش ، ط 4 ، بيروت – لبنان ، دار المعرفة ، 2007 م .

20- الصابوني ، محمد بن علي ، صفوة التفاسير ، ط 4 ، بيروت – لبنان ، دار القرآن الكريم ، 1981 م .

21- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، هذّبه و حققه وضبط نصه وعلق عليه : بشار عواد معروف ، عصام فارس الحرستاني ، ط 1 ، بيروت – لبنان ، مؤسسة الرسالة ، 1994 م .

22- ابن عاشور ، محمد الطاهر ، التحرير و التنوير ، الدار التونسية للنشر ، 1984م .

23- العمادي ، أبو السعود محمد بن محمد ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، بيروت – لبنان ، دار إحياء التراث العربي .

24- ابن فارس ، أبو حسن أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، بيروت – لبنان ، دار الجبل .

25- الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، تحقيق : مكتب التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي ، ط 8 ، مؤسسة الرسالة ، 2005 م .

26- القرشي ، أمينة بنت سعيد بن خيشان العواضي ، أسلوب الاحتباك في آثار أهل العلم و مواقعه في القرآن الكريم ، رسالة ماجستير منشورة ، جامعة أم القرى ، 2009م.

27- ابن القيم الجوزية ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر ، الفوائد المشوق ، القاهرة .

28- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، بيروت – لبنان ، دار صادر .

29- أبو موسى ، محمد ، خصائص التراكيب " دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني " ط 2 ، مكتبة وهبة ، دار التضامن للطباعة ، 1980 م .

30- الميداني ، عبد الرحمن حسن حبنكة ، البلاغة العربية ، أسسها وعلومها و فنونها ، ط 1 ، دمشق ، دار القلم ، 1996 م .